تجربتي في إحياء التراث

للأستاذ عبد السلام هارون

ليس لإحياء التراث أمر أحدثاً، بل هو عمل طبيعي قامت به الأجيال القديمة على امتداد الدهر وعلى صور شتى، من نشر للكتب، أو تلخيص لها أو نقد أو تعليق، فكم قدر أينا من كتب قديمة خلفها أصحابها فقام النساخون والوراقون بإحيائها وإذاعتها على نطاق واسع. فالمقريزي في الخطط ٢ : ٢٥٣ — ٢٥٥ يذكر أنه كان في خزانة العزيز بالله الفاطمي ٣٠ نسخة من كتاب العين و ١٠٠ نسخة من جمهرة ابن دريد. كما يذكر أنه كان في خزانة الفاطميين ١٠٠٠ نسخة من تاريخ الطبري.

ويروى ابن النديم في الفهرست ٣٦٩ في ترجمته ليحيى بن عدى المنطقي النصراني أنه كان ينسخ كتب التفسير والكلام، ويروى عنه أيضاً أنه قال: نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما إلى ملوك الأطراف وقد كتبت من كتب المتكلمين مالا يحصى. ومن طريف ما يروى عن أحد النحاة، وهو يحيى بن محمد الأرزني ما ذكره ياقوت ٢٠ : ٣٤ — ٣٥ والسيوطي في البغية ٤١٦ في شأنه: أنه كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ويبيعه بنصف دينار، ويشترى نبيذاً ولحماً وفاكهة، ولا يبيت حتى ينفق ما معه.

هذا جانب من جوانب إحياء التراث قديماً، وهو جانب النشاط في تكثير الأعداد بالكتابة والنسخ. وهناك جانب آخر يتمثل في شرح ذلك التراث. ونحن نجد أن حماسة أبي تمام المتوفى سنة ٢٣١ قد تناولها بالشرح أكثر من عالم وأديب، فشرحها أبو بكر الصولي، والإمام المرزوقي، وابن جني، والآمدي، والتبريزي، وأبو هلال العسكري، وابن سيده، والشنتمري وغيرهم ممن أحصى عددهم صاحب كشف الظنون واحداً وعشرين شارحاً. وذكروا أن أول شارح لها هو أبو رياش أحمد بن إبراهيم الشيباني المتوفى سنة ٣٣٩.

وكتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ شرحه أو قام بخدمته أكثر من ٥٥ عالماً منهم

(*) ألقى البحث في الجلسة الثامنة من مؤتمر الدورة الثامنة و لأربعين بتاريخ ٧ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ، الموافق ٢ من مارس ١٩٨٢ م.

السيرافى ، والرمانى ، والزمخشرى ، وابن الحاجب ، والشلوبين ، وابن الباذش .

ومقامات الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ تولى شرحها كثيرون منهم الخوارزمى ، والمطرزى ، والعكبرى ، والشريشى الذى له ثلاث شروح عليها : كبير ، وأوسط ، وصغير . وكتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ على ضخامة هذا الكتاب واتساعه شرحه الزبيدى صاحب تاج العروس . وطبع ذلك الشرح بفاس سنة ١٣٠٢ فى ١٣ جزءاً ثم طبع بالميمنية فى سنة ١٣١١ فى ١٠ أجزاء . وقام أخوه أحمد بن محمد الغزالى باختصاره ، واختصره كذلك أبو العباس الموصلى المتوفى سنة ٦٢٢ اختصارين ، كما اختصره السيوطى . وآخر اختصار له إلى اليوم ما نشره عبد السلام هارون باسم تهذيب إحياء علوم الدين .

أما إحياء التراث فى هذه العهود الحديثة فقد لبس ثوباً جديداً يمتاز بالنشاط السريع الذى يتمثل فى إنتاج المطبعة الحديثة فهى كانت عاملا فعالا فى نشر التراث الفكرى على نطاق واسع وعلى صور شتى ودرجات مختلفة من الصحة والتوثيق ومراحل متدرجة من الدقة والعناية حتى وصلت إلى مايشبه القمة فى عصرنا الحاضر .

وكان لإخواننا المستشرقين جهد بارع فى هذه الزاوية وسبق لايمكن إنكاره . فهم كانوا من أساتذة الجيل الحاضر فى الطريقة العلمية التى جروا عليها مستضيئين بلا ريب بجهود أسلافنا الأقدمين فى رواية كتب الحديث واللغة والشعر والأدب والتاريخ فى دقة وأمانة ونظام بارع .

وقد نبغ من بين المستشرقين علماء أمناء قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربى فى أمانة علمية دقيقة اقتبسوها من أسلافنا مقرونة بعناية خاصة بالفهارس الفنية . وهذا أيضاً كان شأن جمهور أسلافنا . فكتب الرجال عندنا تنال ترتيبا فهرسياً ممتازاً مقروناً بالإحالات الذكية ، كما أن مقابلة المخطوطات ومقارنتها ميزة عربية سباقة عرفها آباؤنا الأولون .

ولقد كانت فكرة إحياء التراث العربى والنشاط فيه فكرة قومية قبل أن تكون فكرة علمية فإن طغيان الثقافة الأوربية والنفوذ التركى وضغطه كاد أن يأخذ بمخنق العرب فى بلادهم فى القرنين الماضيين ، فأراد العرب أن يخرجوا إلى متنفَّس يحسون فيه بكيانهم المستمد من كيان أسلافهم ، فى الوقت الذى ألفَوْا فيه الغرباء من الأوربيين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية .

فانطلق العرب فى مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية بدافع من القومية أفراداً وجماعات ، يولون هذا الأمر ما يستحقه من عناية .

ومن ذلك المنطلق المتدفق النابع من الفكرة القومية وجدتنى أسعى وأرحب بالدخول فى

هذا الميدان ، مع تهيّب وحذر شديد . وأول كتاب أقحمت نفسى فيه إقحاماً ، وبدأته بشىء من التحقيق هو كتاب متن الغاية والتقريب لأبى شجاع الذى نشرته سنة ١٩٢٥ وكنت طالباً بالصف الثالث من القسم الأولى الابتدائى بالمعاهد الدينية . وقد مررت فيه بتجربة الدقة فى ضبط النصوص .

وخضت بعده تجربة أخرى غمرنى فيها العالم الكبير المغفور له محب الدين الخطيب فقد كنت أتردد على مكتبته السلفية ، وألتقى بالعلامتين أحمد تيمور باشا وأحمد زكى باشا وقد آنس محب الدين منى بعض الكفاية فعهد إلى بالاشتراك معه فى تحقيق كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة الذى قمت فيه بالعبء الأكبر . وكان ذلك تجربة مشجعة لى على الاندماج فى هذا التيار المقدس .

وكانت المدرسة الأولى فى جدية التحقيق منى أن يكل إلىّ محب الدين الخطيب تنسيق التحقيق لخزانة الأدب للبغدادى فى طبعتها الأولى الحديثة حينما كنت طالباً بتجهيزية دار العلوم حيث أتممت بعدها الدراسة فى دار العلوم العليا ، وقد أتممت تحقيق أربعة أجزاء من الخزانة بالمشاركة مع العلامة تيمور باشا الذى كان له بعض تحقيقات معدودة ، والعلامة عبد العزيز الميمنى الذى كانت تحقيقاته تمتاز بتخريج الأمثال الواردة فى الخزانة ، ونظرات معدودة أيضاً فى التحقيق .

وقد عقد هذا العمل صلة بينى وبين المخطوطات ودراستها وتعرف خطوطها والخصائص الكتابية لها .

أما المدرسة الجامعة لى فكانت فى نطاق كتاب الحيوان للجاحظ ، الذى بذلت له أقصى جهدى فى زمان الشباب ، وفتحت فيه النوافذ لتأمل ملابسات التحقيق وتجاربه المثيرة التى أستطيع أن أرسم بعض زواياها ، وأن أصور أعماقها التى دفعنى الخوض فيها إلى أن أبنى كتابى المتواضع «تحقيق النصوص ونشرها» وهو لا يزال بحمد الله نبراساً — إن صح هذا التعبير — لكل من يريد أن يدخل فى غمار هذا الفن الشريف ، لم يزاحمه كتاب آخر .

فأول ما واجهنى فى هذا المجال قضية تعدد المخطوطات للكتاب الواحد ، وبأيّهما يأخذ المحقق ، وكيف يرتب منازلها ؟ وكيف يستخدمها عندما تتعدد .

وقد اقتضانى وجود سبع مخطوطات لكتاب الحيوان أن أعقد المقارنة بينها نسخة بعد نسخة فكنت أقيد على جوانب الأصل الذى سيقدم إلى المطبعة ما تقتضيه هذه المقارنة من خلاف بالزيادة أو النقص أو اختلاف الوجوه .

فظفرت من ذلك كله بأننى استطعت أن أرجع البصر فى هذا الكتاب قبل طبعه سبع مرات ، فكأننى حفظت الكتاب حفظاً ووعيته وعياً .

ووجدت أن هذا الكتاب كما يقال بتعبير عصرنا موسوعة متعددة الجوانب فى الثقافة العربية .

وفى الحق أن دار العلوم كانت تزودنا بكثير من وجوه هذه الثقافة . فعلى هذا الأساس كنت أدفع نفسى إلى الاستزادة من تلك الوجوه حينما أجد النص الذى أمامى يحتاج إلى مزيد من الدراسة فى تلك الوجوه منه فى اللغة والشعر والنقد والقرآن والحديث والتفسير والفقه وعلم الكلام ، والطب القديم والبلدانيات والتاريخ والسير ، إلخ . وقد لجأت فيما لجأت إلى معاجم اللغة الفارسية والعبرية وإلى كتاب فى الطبيخ لمؤلف بغدادى قديم تاريخ تأليفه سنة٦٢٣ لا توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية ، وقد أسعدنى بالأمس أن أتمكن من إهداء صورة منه إلى مكتبة مجمعنا الموقر .

وعلمت من ذلك أن المتصدى لإحياء كتب التراث لابد أن يكون على صلة وثيقة ممتدة بهذه الأصول وغيرها ، وهذه هى العدة الأولى للمجاهدين فى إحياء التراث .

وشىء آخر ظفرت به وتعلمته من تحقيق كتاب الحيوان هو أن المخطوطات قد يقحم فى أثناء سطورها ما هو دخيل عليها ، فيحتاج المحقق إلى شىء من الفطنة ليخلص المخطوطة من هذا الزيف الذى خالطها .

ومن عجب أنى وجدت فى نسختين اثنتين من أصول الحيوان هذه العبارة عند الكلام على العقرب ، وهى :

« كنت بعجت بطن عقرب إذ كنت بمصر فوجدت فيه أكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو أرزة . حرره أبو بكر السروكنى » .

ومن الواضح الجلى أن هذا الأسلوب ليس للجاحظ ، والجاحظ أيضاً لم يدخل مصر ولا اقتحم أبوابها . وعبارة « حرره أبو بكر السروكنى » هذا الرجل المجهول ، شاهد بأن العبارة مقحمة على الكتاب إقحاماً .

وأمر آخر خطير وصارخ لفت نظرى فى أثناء تحقيق الحيوان وغيره ، وهو ما مُنيت به كتب التراث من بعض التحريفات فى نصوص القرآن الكريم . فكثيراً ما لايخفل الناظر فى كتب التراث بوجوب الشك فى تلك النصوص ، ثم هو كذلك يرى فى دخيلة نفسه أن هؤلاء العلماء الأعلام لا يثبتون هذه النصوص إلا بعد حرص وتثبت . لذلك كان من المؤسف أن أعثر على تحريفات مزعجة فى هذا الكتاب لم أملك إلا إن أردّها إلى نصابها الصحيح .

وجدت فى الجزء الرابع فى جميع النسخ بما فيها الطبعة الأولى فى ص ٧ : « فلما أتوا على وادى النمل » وهى : « حتى إذا أتوا على وادى النمل » .

وفى ص ١٥٩ : « على أن لا أقول على الله إلا الحق فأرسل معى بنى إسرائيل » .وهى «على أن لا أقول علىالله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » .

وفى ص ١٦٠ فى جميع النسخ أيضا بعد «ولى مدبرا ولم يعقب» « ياموسى أقبل ولاتخف إنك من الآمنين » وهى «ياموسى لاتخف إنى لايخاف لدى المرسلون » .

وفى الجزء الخامس ص ٣٢ : « إنى مبتليكم بنهر » وهى « إن الله مبتليكم بنهر » .

وفى ص ٣٩ : « هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً » . والوجه إسقاط « هو » .

وفى ص ١٣٧ : « وأنهار من ماء غير آسن » إنما هى : « فيها أنهار من ماء غير آسن » . وفى ص ٥٤٤ فى بعض النسخ : « فلما جاء أمرنا وفار التنور » ، وفى بعضها ؛ « ولما جاء أمرنا وفار التنور » ، وكلاهما تحريف فى تحريف . وإنما هى «فإذا جاء أمرنا وفار التنور » إلى غير ذلك من التحريفات التى هى كالشعر فى العجين يحتاج المحقق إلى استلاله فى حذر ورفق بعد مراجعة للقرآن الكريم ، ومختلف كتب التفسير والقراءات ، ولا سيما الشاذ منها .

لذا آمنت بضرورة تخريج آيات القرآن الكريم ، ودعوت إلى ذلك فى حتمية صادقة كما دعوت إلى ضرورة الاهتمام بوضع الفهارس للآيات القرآنية الكريمة .

وكان من نتيجة اليقظة لهذه الظاهرة والتجربة المثيرة فيها أن أحافظ على هذا المبدأ فى مختلف كتب التراث التى نفضت عنها غبارها . ومنها : . .

ماجاء فى كتاب « الجوارى» للجاحظ فى مجموعة داماد : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » وهى : « كان فاحشة وساء سبيلا » فقط وهى الآية ٣٢ من الإسراء التبست بالآية ٢٢ من النساء : « ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إنه كان فاحشة ... الآية » .

ومما عثرت عليه فى مخطوطات تهذيب اللغة للأزهرى من التصحيف القرآنى ماجاء فى مادة (وقى) : « ما لكم من الله من واق » هى « مالهم من الله من واق » . وفى مادة (فوق) : « ما ينظرون إلا صيحة مالها من فواق » .وهى : « وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق » ١٥ من سورة ص» وهى آية فريدة فى القرآن ومع ذلك ورد فيها تحريفان اثنان .

وفى مخطوطات سيبويه العشر ونسخه المطبوعة فى ثلاث طبعات ببولاق وباريس والهند وكذا فى شرح السيرافى : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، والحافظين فروجهم والحافظات » وصوابها : « والحافظين

فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » فى الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

وفى الأصل المخطوط لمقاييس اللغة لابن فارس فى مادة (نكب) : « وهم عن الصراط لنا كبون » وإنما هى : « وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ». وهى الآية ٧٤ من سورة المؤمنين .

وفى خزانة الأدب ٢ : ٢٠ فى نسخته المطبوعة ببولاق ومخطوطة الشنقيطى هذه الآية : « وما لهم به من علم إلا اتباع الظن » وإنما هى « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » بطرح الواو ، وهى الآية ١٥٧ من سورة النساء وأما المسبوقة بالواو فهى الآية ٢٨ من سورة النجم ونصها : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن » .

وفى الخزانة ٣ : ٦٠٥ فى النسختين : « فامسحوا برءوسكم وأرجلكم » ،وإنما هى « وامسحوا » .

وفى توضيح ابن هشام ٢ : ١٥٣ فى بعض النسخ : « أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه » ، وإنما هى « فانبجست » . وقد نبه على ذلك الشيخ خالد الأزهرى ، التبست بآية الاستسقاء فى البقرة « وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا ... الآية » .

إلى كثير من تلك التحريفات التى لايفطن لها إلا حافظ حريص على نصوص الكتاب العزيز .

وقد كشفت فى أثناء دراستى لكتب الحديث أنه قد وقع مثل هذا التحريف قديماً بصورة محدودة جداً . عثرت على هذا النص فى كتاب اختصار علوم الحديث لابن كثير الدمشقى ص ١٦٢ — ١٦٣ ، وهو : « وعن القاضى عياض أن الذى استمر عليه عمل أكثر الأشياخ أن ينقلوا الرواية كما وصلت إليهم ولا يغيروها فى كتبهم حتى فى أحرف من القرآن استمرت الرواية فيها على خلاف التلاوة ، ومن غير أن يجىء ذلك فى الشواذ ، كما وقع فى الصحيحين والموطأ ، ولكن أهل المعرفة منهم ينبهون على ذلك عند السماع وفى الحواشى » .

ولعل ماذكرت من إهمال التحقيق القرآنى أضخم وأشنع مزلق من مزالق الخطأ التى تدعو إلى حرص المحقق وأمانته .

وشبهة أخرى اعترتنى فى النصوص القرآنية : أن كثيراً من المؤلفين القدماء كانوا يستشهدون بالنص القرآنى تاركين لبعض الحروف أو الكلمات المتصدرة للنص ، كالواو ، والفاء ، وثم ، وإن أو قل أوما أشبه ذلك من الحروف والكلم نحو « وقل جاء الحق » فيقتصر المقتبس على « قل جاء الحق » أو على « جاء الحق » . وقد أوقعنى هذا فى حيرة شديدة ، هل من الأمانة أن أزيد الواو أو الكلمة التى قد يخيل للباحث أنها قد سقطت من صدر الآية ؟ .

وبعد لأى واستقصاء وجدت الفتوى عند الإمام الشافعى فتوى جماعية فى الفتوات ٦٤٣ : « يحل لهم الطيبات » وهى « ويحل لهم الطيبات » والفقرة ٩٧٤ « قاتلوا المشركين كافة » هى « وقاتلوا المشركين كافة » والفقرة ٩٧٥ : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » هى « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

ووجدت تلك الإجازة أيضاً بصورة أوسع فى تفسير مقاتل المسمى بالأشباه والنظائر مخطوطة مكتبة أحمد الثالث فى أكثر من اثنى عشر موضعاً من التفسير .

وقد نبهت تلميذى الدكتور عبد الله شحاتة عند مناقشتى لرسالته على خطأ تصرفه فى هذا الوجه من الاقتباس ومع هذا التحذير ألفيته بعد تصفحى لهذا الكتاب بعد قيامه على طبعه قد غير النص الأصيل بالزيادة . وبذلك وقعت فى الكتاب تلك التشويهات ، إلى كثير مما قام به من تكملة بعض الآيات فى صلب النص التى يعدها ضمير التحقيق عدواناً على الكتاب وعلى مؤلف الكتاب .

أنتقل بعد ذلك إلى بعض مزالق التحقيق ، وهو السرعة أو التسرع فى الحكم على صحة النص بعامل الإلف ، فقد يألف المحقق صورة معينة لعلم من الأعلام أو لقب من الألقاب ، فيخيل إليه أن ما خالف تلك الصورة الراسخة فى ذهنه هو الخطأ بعينه ، فيبادر إلى التغيير ليثبت مكان النص الصحيح ما خاله هو الصواب .

ومن أمثلة ذلك ما وجدته فى مقدمة معجم تهذيب اللغة للأزهرى الذى يذكر فيها أن أبا عمرو الشيبانى اسمه إسحاق بن مرار الشيبانى ، مع إجماع كتاب التراجم على أنه ابن مِرار بكسر الميم ، وبالراء الثانية فى آخره . فحدثتنى نفسى أن أصححه بمرار ثم تراجعت وتريثت ، لأنى أعلم أن نسخة الأصل دقيقة جداً وحينما رجعت إلى ترجمته فى إنباه الرواة ١ : ٢٢٥–٢٢٦ وجدت القفطى يقول فى أثنائها : « وأما أبو منصور الأزهرى الهروى رحمه الله فإنه ذكر فى مقدمة كتابه فى اللغة الذى سماه التهذيب أسماء جماعة من علماء العربية منهم أبو عمرو الشيبانى عفا الله عنه ، فأخطأ فى اسم أبيه وأورده مصحفا فقال « مراد » وهو خطأ كبير من مثله ، ورثى ذلك بخطه فى مقدمة الكتاب . أخبرنى ياقوت — الكلام للقفطى — واسمه ياقوت الرومى مولى عسكر الحموى قال : شاهدت بمرو نسخة من الكتاب بخط الأزهرى عند بنى السمعانى وفيها مراد » .

أقول ، بعد هذا كله : إننى لم أعدُ أن أثبت النص على خطئه كما ورد بخط الأزهرى ولم أستحل تغييره ؛ لأن هذا النص ملك للمؤلف ولا أملك بعد ذلك إلا أن أنبه على الصواب فى حاشية الكتاب .

وأخرى وقانى الله شرها ، إذ وجدت ابن إسحاق فى السيرة ٣٢٩ يلقب أسماء بنت أبى بكر الصديق بذات النطاق ، وعهدى وعهد الناس بها أنها « ذات النطاقين » فهممت ولم أفعل أن أجعلها ذات النطاقين ، ولكنى لم ألبث أن وجدت ابن هشام يعقب على ذلك بقوله : « وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول ذات النطاقين . وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر » . فلم يبدل ابن هشام ذات النطاق أمانة منه وحفاظاً على النص مع شهرة اللقب الثانى الذى ورد فيه حديث : « أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة » .

فى قراءة المخطوطات :

تراثنا الثقافى العربى ، وهو أضخم أنواع التراث الإنسانى وأعظمها وصل إلينا مكتوباً مصوراً فى صور شتى من الخطوط ، ولكل صورة من تلك الصور فروع وفروع للفرع فى شكل الخط وفى رسم الكلمات الذى يسمى اليوم بقواعد الإملاء . ومعنى هذا أن القارئ والدارس فى كتب التراث محتاج إلى خبرة واسعة فى تلك الخطوط والضبوط ، لكى يصل إلى صواب القراءة .

وتحتفظ خزائن الكتب ببعض صور الخط الكوفى القديم فى بدء تطوره ، كما تحفظ الخط المشرقى الجميل الواضح ، والخط الأندلسى المشتق من الخط المشرقى والخط الأوربى معاً . ويمتاز هذا الخط بشيوع الاستدارات والتقليل من الزوايا ، وتداخل الكلمات وإطالة أواخر الحروف . وقد اكتسب الخط الأندلسى بالمغرب حياة جديدة وجمالا جديداً ولكنه لم يلبث أن اضمحل وصار كما يقول ابن خلدون : « مائلا إلى الرداءة بعيداً عن الجودة » . ويفهم من مقدمته أن ما سماه المتأخرون بالخط المغربى إنما هو الحالة التى صار إليها الخط الأندلسى الجميل .

ويشترك الخط المغربى مع الأندلسى فى قاعدة نقط الفاء والقاف ، إذ يكتفى كل منهما برسم القاف منقوطة بنقطة واحدة من أعلى ، ورسم الفاء بنقطة واحدة أيضاً ، ولكن من الأسفل .

وحروف الهجاء تختلف ترتيبها بين المشارقة والمغاربة كما هو معروف . وقد وجدت فى تطوافى الطويل أن قراءة الخطوط الأندلسية والمغربية تحتاج إلى كثير من التمرس والاعتياد ، إذ ضل كثير من المحققين المعاصرين سبيلهم إلى القراءة الصحيحة فى هذا الضرب من الخطوط .

الأبناء الأدعياء :

إن الاستعانة بالمراجع التى يقتضيها تحقيق المخطوطات أمر حتمى ، ولسنا بحاجة إلى الخوض فى تعيين هذه المراجع فقد أصبحت المناهج العلمية الحديثة كفيلة بذلك ، كما أن لكل باحث طريقته الخاصة فى تعيين هذه

المراجع والاعتماد عليها ، والقاسم المشترك الأعظم كما يقولون هو مختلف ضروب المعاجم اللغوية وكتب وسائل الضبط النحوى والإملائى .

لكنى أريد أن أنوه بما كشفته من بعض الموسوعات القديمة التى تضم فى أحشائها كتباً كاملة أو قريبة من الكاملة . وهى بلاريب نوع من أصول النص خطير . وقد لقبت تلك الأصول فى كتابى بأنها الأبناء الأدعياء ، لأنها أصول قديمة منقولة فى أثناء أصول أخرى فتنتمى بالبنوة إلى أمهاتها .

وحينما نشرت وقعة صفين لنصر بن مزاحم لم أجد إلا النسخة المطبوعة بالحجر فى إيران التى فقد أصلها المخطوط . وكنت فى قراءتى لشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ألمح بين الفينة والأخرى نصوصاً طويلة مقتبسة من كتاب وقعة صفين ، ففكرت فى أن أتعقب تلك النصوص فى مختلف صفحات الكتاب فى أجزائه العشرين وأمكننى فى قرابة شهر كامل وبعون من الله أن استخرج نسخة كاملة من هذا الكتاب لا ينقصها إلا نحو عشرين صفحة من نحو ٣٥٠ صفحة . وقد بينت هذه المقارنة بالأرقام فى مقدمتى لوقعة صفين كما عثرت على جمهور كبير من كتاب « المغازى » للواقدى يبلغ نحو : ثلثمائة صفحة .

ومن يتعقب خزانة الأدب للبغدادى ، أوعيون الأخبار لابن قتيبة ، أو الأشباه والنظائر للسيوطى يجد مثيلا لهذا الضرب من الأبناء الأدعياء .

تصحيح نسبة الكتب الى مؤلفيها :

إن تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلف يقتضى حذراً شديداً وإلماماً صادقاً . وقد كان من المعروف المتداول أن مؤلف كتاب « مجالس العلماء » هو أبومسلم كاتب ابن حِنْزابة ، أوبتعبير مختصر كاتب ابن حنزابة كما هو مسجل فى فهرس دار الكتب المصرية .

وأبو مسلم هذا هو محمد بن أحمد بن على الكاتب ، وأما ابن حنزابة فهو أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر ، وزير بنى الإخشيد بمصر مدة إمارة كافور . وقد اتضح لى أن ذكر هذا الاسم على الصفحة الأولى من الكتاب ، وبخط حديث مخالف لخط الأصل ، مجلبة للشبهة ومدعاة للتحقيق .

وبسلسلة من التحقيقات الصارمة فى نصوص الكتاب ومجالسه ، وفى أسناده المماثلة تماماً لأسناد أمالى الزجاجى قطعت باليقين وبأدلة سبعة لا يحتمل واحد منها خطأ ، أن مؤلف هذا الكتاب هو أبوالقاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى صاحب الأمالى وأن كاتب ابن حنزابة هذا ما هو إلا أحد نساخ الكتاب . وقد أوضحت هذا الأمر بأسانيده فى مقدمة هذه المجالس .

ومرت بى تجربة أخرى فى كتاب ظننت أنه من كتب الجاحظ ، وهو بدار الكتب

المصرية أيضاً برقم ٢٣٤٥ أدب . وقد كنت فى إحدى لقاءاتى بالمغفور له أحمد زكى باشا قد بشرنى بأنه قد استحضر لدار الكتب المصرية من تركيا صيداً ثميناً هو كتاب « تنبيه الملوك والمكايد » للجاحظ . وقد علقت تلك البشرى بذهنى قبل أن أفكر فى نشر مكتبة الجاحظ وإحيائها . وحينما صار الأمر جداً ونظرت نظرة الفاحص فيه وجدت هذه النسبة زيفاً من الزيوف وباطلا من الأباطيل . وبحسبك أن تجد فى أحد أبوابه : (باب نكت من مكايد كافور الإخشيدى) ، و(باب مكيدة توزون بالمتقى بالله) . فما عدا مما بدا ؟ كافور الإخشيدى كان يحيا بين سنتى ٢٩٢ ، ٣٧٥ والمتقى بالله ، وهو الخليفة العباسى إبراهيم بن المقتدر كان يحيا بين سنتى ٢٩٧ ، ٣٥٧ . وهذا كله تاريخ يجاوز وفاة الجاحظ بعشرات السنين ، إذ كانت وفاة الجاحظ سنة ٢٥٥ وأعجب من ذلك أسلوب الجاحظ ، إذ جاء فى صدر مقدمته : الحمد لله الذى افتتح بالحمد كتاباً ، وفتح للعبد إذا وافى إليه باباً ، قسم بين خليقته فطوروا أطواراً وتحزبوا أحزاباً ، وأنفذ فيهم سهمه وأمضى فيهم حكمه وجعل لكل شىء أسباباً ، فهم دائرون فى دائرة إرادته لا يستطيعون عنها انقلاباً داهشون فى بدائع حكمته ومشيئته وإرادته ، يعز من يشاء ويرزق من يشاء » .

وليس هذا الأسلوب بحاجة إلى التعليق ـ كما أن الكتاب ليس بحاجة إلى أن أسهب فى نفى نسبته إلى أبى عثمان الجاحظ .

عوامل التصحيف والتحريف :

وجدت فى رحلتى أن عوامل التصحيف والتحريف لكثير من الكلمات تكاد تخضع لعوامل محدودة من الممكن إجمالها فيما يلى :

العامل الأول : هو نقط الحروف ، وعدد النقط ومواضع النقط .

مثال ذلك : اجترار المودة ، أى اجتلابها صحفت إلى احتراز المودة سقطت نقطة الجيم وزيدت نقطة على الراء .

النمور والبيور : جمع نمر وببر صحفت إلى التمور والبيور زيدت نقطة على النمور من أعلى ونقطة إلى الباء من أسفل .

دانية من بطن الدماغ : حرفت إلى ذاتية زيدت نقطة على الدال وأخرى على النون

العامل الثانى : أسنان حروف الكلمات

مثال ذلك شبيه به تصير إلى تنبيه به نقصت أسنان الشين فصارت إلى ما ترى .

على طرف الثمام تصير : على ظرف الشمام ، زيد سنان على سن الثاء فصارت الشمام .

والعامل الثالث : التصاق الحروف أو انفصالها .

مثال ذلك حاق الحرص ، أى شدته تحرف إلى خلق الحرص بالتصاق الألف بالقاف فتصير لاما .

والعامل الرابع : التباس الراء بالواو والواو بالراء ، وهى ظاهرة واسعة النطاق. النجوم والرجوم تصبح : النجوم والوجوم

المرت : الأرض الجرداء تصير : الموت ، أو الموت يصير إلى المرت . وهذا كله خاضع لكتابة الراء مع التضخيم أو لكتابة الواو مع ترقيق رأسها فتصير كأنها الراء .

والعامل الخامس : التباس اللام بالكاف أو الدال .

شوك القتاد : تصير : سول القتال بتضخم الدال ، لم يتحول : لم يتحرك .

والعامل السادس : التباس الكاف بالعين والعكس : الكلاب على البقر وجدتها : كل البقر بعامل تضخم العين وانبساط أولها إلى أعلى مع إهمال سن الياء وضموره.

ولقد كانت معرفة هذه العوامل معينة لى على حل ألغاز كثير من التحريفات والتصحيفات . وقد أودعتها كتابى تحقيق النصوص .

تجربة الفهارس :

كان من أول مالفت أنظار الأدباء فى جيلنا القديم هو فهرس كتاب الأغانى الذى صنعه المستشرق الإيطالى إغناطيوس جويدى وترجمه إلى العربية محمد مسعود المحرر بجريدة المؤيد .

وظهرت من بعده فهارس الكتب التى حققها أحمد زكى باشا ومحققو دار الكتب المصرية .

وقد تنوعت ضروب الفهارس لكتب التراث وكان لى فيها نصيب وافر واستحداث أنواع كثيرة منها ، اقتضتها ضروب الكتب التى قمت ببعثها ، ولعل أصعب تجربة مررت بها هى تجربة صنع فهارس ، أنساب العرب لابن حزم ، وهو أوسع كتاب أخرجته المطابع فى علم الأنساب . وقد هالنى ما رأيت من كثرة الأعلام التى سردها ابن حزم فى كتابه ، فهو لا يكاد يفوته ذكر بطن من بطون العرب وفصائلها ، وحينما يتعرض لذكر خليفة أموى أو عباسى أو أندلسى يقوم بسرد أبناء ذلك الخليفة فردا فردا . وقد يكون للخليفة الواحد أربعون ولدا أو خمسون أو ستون ومعنى هذا أن يكون للخليفة الواحد أربعون سطرا أو خمسون أو ستون بحسب عدد أولاده . وفى هذا إسراف كبير فى غير طائل .

فاذا انفرد أحدهم ، فيما قبل أو بعد، بخبر أو حادثة خصصته بالذكر بالإشارة إلى الصفحة التى ذكر فيها الخبر أو الحادثة . وبذلك اختصرت فهرس الأعلام إلى نحو الربع وصارت نسبة الفهـــارس الاثنى عشر إلى صلب الكتاب ما يعادل نسبة الخمسة والثلاثين إلى المائة .

ومعنى هذا كله أن صنع الفهارس يحتاج إلى دقة ودراسة تتناسب مع موضوع الكتاب وحجمه فى غير ما إسراف أو تقصير .

هذه تجربتى فى أثناء نصف قرن من الزمان بذلت فيه ولم أبخل ، وصبرت ولم أجزع ، لم أستعن غير الله ، ولم ألجأ إلى سواه ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ٥

عبد السلام محمد هارون
عضـــو المجمع